الطب النبوي بين الوحي والواقع

عبد المجيد نصير*

الملخص

تبحث هذه المقالة في الطب النبوي، تاريخاً وموضوعاً ومؤلفات قديمة وحديثة، ونقداً. وتختم في الأخير بملاحظات وأفكار قد تساعد على تحسين الاستفادة من هذا النوع من الطب.

مقدمة

يقصد بالطب النبوي «النصائح والهدي المنقول عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في الطب، سواء تطبب به لنفسه أو وصفه لغيره أو ذكر أمامه فأقره». وقد وصلتنا على هيئة أحاديث شريفة، قولاً أو فعلاً أو إقراراً. هذه الأحاديث منها الوقائي ومنها العلاجي. واهتمت بأمراض القلوب وأمراض الأجساد. وقد اهتم العلماء بهذا الطب فألفوا في شقيه: القلبي والجسدي. ولن نهتم في هذه الدراسة بطب القلوب، على شدة الاهتمام به وكثرة ما أُلِّف فيه. وسنصب الجهود لدراسة موجزة وافية لطب الأجساد.

ولقد أُرشد المسلمون إلى أهمية طب الأجساد منذ البداية. ففي الحديث الشريف «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير». وكانت الحروب بالسيوف والرماح، وهذه تستلزم قوة بدنية خارقة. والمجتمع المسلم في المدينة وما حولها مثل كل المجتمعات. يعتري أفراده المرض والوهن. وقد توفر لهذا المجتمع نوعان من الطب: الطب المعروف آنئذ عند المطببين وأشباههم، ممن تعلموا في مجتمعهم أو خارجه، والطب النبوي؛ إذ نجد المسلمين يلجأون إلى الرسول الكريم في أمراضهم علهم يجدون دواء. وقد شجعهم قول الرسول الكريم «ما من داء إلا وأنزل الله له دواء». وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، توسعت المعلومات الطبية من علم بشري، من ترجمة كتب طب، أو وجود أطباء غير عرب، من خريجي مدارس الطب الموجودة آنئذ. واهتم الخلفاء والأمراء وعلية القوم بهذا النوع من الطب، حتى صار الطب الإسلامي أرقى ما وصلت إليه البشرية في القرون الوسطى. وكتب الرازي وابن سينا وغيرهم كانت كتب التدريس في الجامعات الأوروبية لقرون عديدة.

على أن المسلمين انتبهوا وهم يجمعون الحديث الشريف إلى وجود ثروة من المعلومات الطبية التطبيقية في هذه الأحاديث. فاهتموا بها على درجات مختلفة. فمنهم من جمعها في كتبه، لكن بعناوين دالة على الموضوع، ومنهم من أفرد لها فصولاً خاصة أو جزءاً من موسوعته، ومنهم من أفرد لها مؤلفاً خاصاً. كذلك وجدوا في بعض آيات القرآن الكريم ما له علاقة بالطب البدني. فنحن نجد ذكر العسل «فيه شفاء للناس» في سورة النحل المكية (آية ٦٩). وإذا اعتبرنا القرن التاسع عشر، على أنه القرن الذي بدأ فيه المسلمون الاستفادة من الطب الأوروبي محتوى ومنهاجاً، كما في مصر منذ أن نهض بها محمد علي الألباني، أو في الدولة العثمانية، أو الهند، فإننا نجد المؤلفات التي تعنى بالطب النبوي حتى نهاية القرن الثامن عشر ٣٥ مؤلفاً نسردها لاحقاً. وكما أسلفنا، فإن كثيراً من المؤلفين هم من أهل الحديث. وقد يكون أهمها «كتاب الطب النبوي» للمحدث أبي نعيم الأصفهاني، لأنه يعتبر بحق، موسوعة في هذا النوع من التصنيف. ولذلك، سنعتمد عليه في تقديم هذا الطب، وتبيان أحاديثه. وقد حقق هذا الكتاب مصطفى خضر دونمز التركي، في سعيه ليكون رسالة الدكتوراه من جامعة أم القرى في مكة المكرمة.

أهمية الطب النبوي وفضله

كثير من المؤلفين في الطب النبوي يعتبرونه مقدماً على الطب البشري. وحجتهم أن الوحي الإلهي الذي هو أصل الطب النبوي، أعلى دقة وصواباً من العمل البشري فعلاً أو تفكيراً. وذلك أوضح في طب القلوب الذي من أدويته حسن التوكل على الله عز وجل، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة، والتوبة، والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب». (زاد المعاد، ج ٣/٦٦). وقد يكون هذا السبب إلى العناية فيه قديماً وحديثاً. وقد تنوعت المؤلفات بين الضيق الذي اهتم بالأحاديث النبوية والممارسات التي تجري في مضمارها، وبين أعمال موسوعية. وكما يمكن أن نظن، تناسب الاهتمام بالطب النبوي بخاصة، والطب البديل مع المستوى الثقافي للمريض وأهله، ومع حالته المادية، أو توفر وسائل علاج متقدم.

* أستاذ الشرف-جامعة العلوم والتكنولوجيا - عضو مجمع اللغة العربية الأردني

المؤلفات في الطب النبوي

تتخذ المؤلفات في الطب النبوي من الأحاديث الشريفة المتعلقة بالطب متنها الرئيس؛ علماً بأن هذه الأحاديث مروية ضمن مجموعات مختلفة، وتحت عناوين طيبة متنوعة، مثل الطب، والمرضى، والأشربة، والرقية، والأدواء، والأطعمة، والوقاية وغير ذلك. ونقدم فيما يلي قائمة بالكتب المختصة بالطب النبوي، مرتبة حسب تاريخ تأليفها:

١. رسالة لجابر بن حيان (ت ١٤٨هـ/٧٥٥م) جمع فيها أحاديث شريفة متعلقة بالطب النبوي، على ما تنقله مصادر الشيعة، دون ما يوجد ما يؤكد ذلك من مصادر أخرى.

٢. «الرسالة الذهبية»، وهي رسالة في الطب النبوي أعدها أبو الحسن علي بن موسى (ت ٨١٨/٢٠٣)، للخليفة المأمون.

٣. كتاب «الطب النبوي» لعبد الملك بن حبيب الأندلسي (ت ٨٥٣/٢٣٨)، وهو أول كتاب أندلسي في الموضوع.

٤. كتاب «الطب النبوي» لأبي القاسم بن حبيب النيسابوري (ت٩٦٠/٢٤٥).

٥. كتاب «الطب والأمراض» ضمن «الرسالة المستطرفة» لابن أبي العاصم أبي بكر أحمد بن عمرو بن نبي (ت٩٠٠/٢٨٧).

٦. كتاب «الطب النبوي» لأحمد بن محمد الدينوري الشهير بابن سنّي (ت٩٧٣/٣٦٣). وقد اختصره استجابة لطلب تلاميذه.

٧. كتاب» الطب في الحديث» للمحدث أبي عبيد محمد بن الحسن الحراني (ت٩٧٩/٣٦٩).

٨. كتاب «الطب النبوي» للمحدث لأبي نعيم الأصفهاني (ت ١٠٣٨/٤٣٠)، وهو عمدة هذه المقالة.

٩. كتاب «الطب النبوي» لأبي العباس جعفر بن محمد بن مَعصَر المستغفري (ت ١٠٤١/٤٣٢)؛ وهو أيضاً محدث بارز.

١٠. رسالة صغيرة في الطب النبوي للمحدث الحافظ الشهير أبي بكر الخطيب البغدادي (ت١٠٧٢/٤٦٣) تلميذ أبي نعيم.

١١. كتاب «الطب النبوي» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحميدي (ت ١٠٩٠/٤٨٨).

١٢. كتاب «الطب النبوي» للحافظ الفقيه عبد الخالق الإشبيلي (ت١١٨٨/٥١٨). كتاب «الطب الروحاني» وكتاب «لقط المنافع» لأبي الفرج ابن الجوزي (ت ١١٩٩/٥٩٧).

١٣. رسالة «الأربعون في الطب النبوي» للطبيب الشهير موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي (ت ١٢٣١/٦٢٩). وقد شرح فيها هذه الأحاديث. ثم قام تلميذه محمد البرزالي (ت ١٢٣٨/٦٣٦) بتجريد هذا العمل من شرحه، وحوَّله إلى كتاب. وقد حققه عبد الله بن كنون ونشرته مطبعة الفضالة للنشر في المغرب سنة ١٩٧٩.

١٤. كتاب «الطب النبوي» لضياء الدين محمد بن واحد المقدسي (ت ١٢٤٥/٦٤٣). وقد نشر هذا الكتاب محققاً من قبل مجدي فتحي السيد، الطب النبوي، دار الصحابة للنشر، بيروت ١٩٨٩/١٤٠٩؛ وأبو إسحاق الحويني، كتاب الأمراض والكفارات والطب والرقية، دار ابن عفان للنشر، بيروت ١٩٩٠/١٤١٠.

١٥. كتاب «الشفاء في الطب» لأحمد بن يوسف التيفاشي (ت ١٢٥٣/٦٥١) وهو اختصار لكتاب أبي نعيم.

١٦. كتاب «الطب النبوي» لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الفتح البعلي (ت ١٣٠٩/٧٠٩).

١٧. كتاب «الأحكام النبوية في الصناعة الطبية ”لأبي الحسن علي بن عبد الكريم بن طرخان الحموي (ت١٣٢٠/٧٠٩). وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة، عام ١٩٥٥/١٣٧٤.

١٨. كتاب «تذكرة في الطب النبوي» للإمام بدر الدين بن جماعة (ت١٣٣٣/٧٣٣).

١٩. كتاب «الطب النبوي» للمحدث المؤرخ الشهير شمس الدين لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي التركماني (ت١٣٤٧/٧٤٨). وحقق هذا الكتاب شهرة واسعة.

٢٠. وخصص ابن قيم الجوزية (ت ١٣٥١م٧٥١)، أكثر الجزء الثالث من كتاب «زاد المعاد في هدي سيد العباد» للطب النبوي. والكتاب التام مطبوع أكثر من مرة، كما طبع الجزء الخاص بالطب النبوي.

٢١. كتاب «الرحمة في الطب والحكمة» للمحدث مهدي بن علي الصابري (ت١٤١٢/٨١٥).

٢٢. كتاب «تسهيل المنافع في الطب والحكمة» لإبراهيم بن عبد

الرحمن بين أبي بكر الأزرق (ت ٨٩٠/١٤٨٥). وهو توسعة للكتاب السابق.

٢٣. كتاب «الطب النبوي» لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت ٨٩٥/١٤٩٠).

٢٤. كتاب «السير القوي في الطب النبوي» للمحدث الشهير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢/١٤٩٦).

٢٥. كتاب «المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي» للمؤلف الموسوعي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١/١٥٠٥).

٢٦. القسم الثامن من كتاب «المواهب اللدنية» لأحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني (ت ٩٢٣/١٥١٧).

٢٧. كتاب «روض الإنسان في تدابير صحة الإنسان»، وكتاب «حفظ الأبدان» لخير الدين خضر بن محمود العطوفي (ت ٩٤٨/١٥٤١).

٢٨. كتاب «المنهل الرويّ في الطب النبوي» لشمس الدين محمد بن أحمد بن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣/١٥٤٦).

٢٩. الكتب التالية في الطب النبوي لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي (ت ١٠٦٩/١٦٥٨):
أ- مصابيح السنة في طب خير النبوي؛ ب- الفوائد الطبية الموافق لطب البرية؛ جـ- التذكرة في الطب.؛ د-الجامع في الطب.

٣٠. كتاب «الطب النبوي» لقايسوني زادة محمود بن محمد بدر الدين أفندي (ت ٩٧٦/١٥٦٨)، وهو كتاب منظوم.

٣١. كتاب «صحة آباد في شرح الأربعين» لعثمان زادة أحمد طيب أفندي (ت ١١٣٦/١٧٢٣)، وهو شرح على أربعين حديثاً حول الطب النبوي.

٣٢. كتاب «مختصر الطب النبوي» لمرعشي زادة قدوسي أحمد أفندي (ت ١٢٦٥/١٨٤٨).

٣٣. كتاب مجموع فيه ٤٢ حديثاً في الطب النبوي، للدكتور حسين رمزي (ت١٨٩٦).

٣٤. رسالة «أحاديث في الصحة» للدكتور نبيل الطويل. وتتعلق بالطب الوقائي، من منشورات الكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٧/١٩٧٧.

٣٥. كتاب «الطب النبوي والعلم الحديث» في ثلاثة أجزاء للدكتور محمود ناظم النسيمي؛ من منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤/١٩٨٤-١٤١٧-١٩٩٦.

٣٦. ٤٠-كتاب «الطب الوقائي في الإسلام» لعمر بن محمود بن عبد الله الصيدلي. من منشورات دار الثقافة، فاس ١٤١١/١٩٩٠.

٣٧. رسالة «الهدي النبوي في الطب»، لعبد الله بن جار الله بن إبراهيم. وهي رسالة قصيرة عظيمة الفائدة. الرياض ١٤١٢/١٩٩١.

٣٨. كتاب «صحيح الطب النبوي» للشيخ ماجد بن أنس البنكاني. واهتم بالأحاديث الصحيحة فقط، دار النفائس، عمان ١٤٢٤/٢٠٠٤.

٣٩. بحث «أثر السنة النبوية في الطب الوقائي والعلاجي المعاصر»، للدكتور محمد عبد الرزاق أسود، قدم لمؤتمر «السنة النبوية في الدراسات المعاصرة»، ١٧-١٨ نيسان ٢٠٠٧، جامعة اليرموك.

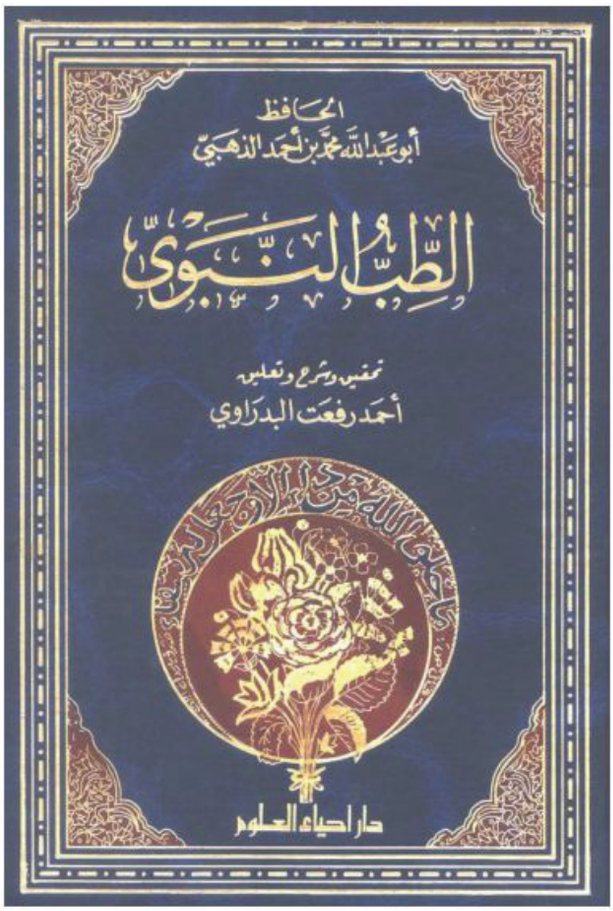

١٢٤٠. مجموعة من بحوث وكتب منشورة ورسائل دكتوراه تهتم بالطب النبوي، تخصيصاً أو تعميماً وردت في مراجع البحث السابق.

ولا شك بأن عدداً من البحوث والمقالات والكتب المهتمة بالطب النبوي قد صدر في العقد الأخير. ولا أرى فائدة من تتبع ذلك. فهي، كما سنشير إليه، نقل عن بعضهم بعضاً، مع إضافات قليلة.

وتظهر قائمة المراجع أن الاهتمام المعاصر للطب النبوي زاد أضعافاً، وفي مدة قصيرة، عما قدمه السابقون على مدى قرون، حصل وعلى الرغم من التقدم الطبي في العلوم الأساسية والعلاجات السريرية والاختراعات التكنولوجية.

الطب النبوي والطب العام وكتاب أبي نعيم

انتبه المؤلفون القدامى إلى أهمية الربط بين الطب العام بكل جوانبه، مع الطب النبوي. ويمكن ملاحظة ذلك من مراجعة سريعة للمقالات السبع في كتاب أبي نعيم المشار إليه آنفاً.

ففي المقالة الأولى، وعنوانها «في تقديم المعرفة وفضل صناعة الطب»، وهي من ١٢ باباً، تهتم بأهمية تعلم الطب، وتقديم المعرفة به، وفي معرفة العقاقير.

وتضم المقالة الثانية ٣٥ باباً، وعنوانها «في معرفة تركيب البدن وتدبير الصحة». وموضوعات الأبواب متنوعة، من تركيب البدن، وفضل الصحة، وحفظ الأبصار، واختيار البلدان، وما يُتوقّى من المأكولات، والاحتراس من السموم، وغير ذلك.

والمقالة الثالثة وعنوانها «في إشفاء العلل وتدبير المريض» وهي الأطول وتتألف من ١٣٥ باباً. وهي في ذكر أنواع العلل وعلاجاتها، ويكاد يكون شاملاً لكل ما فيه أثر نبوي.

والمقالة الرابعة وعنوانها «في معرفة العقاقير ومنافعها»، هي من باب واحد يذكر فيها جميع العقاقير الطبيعية مما تنبت الأرض من ثمر فوقها أو تحتها، ومنافع بعض أعضاء الحيوان.

وتتألف المقالة الخامسة وعنوانها «حفظ المريض بالحميّة وتدبير الناقه وقوى الأغذية» من ١٦ باباً. وفيه أبواب عن منع المريض الغذاء أو الحركة أو ما يزيد في علته. وبابه الأكبر في الحديث عن الماء، وباب آخر عن الألبان، وباب عن الأشربة.

وعنوان المقالة السادسة هو «في الفواكه»، من بابين أحدهما في قوى الفواكه والثمار، وآخر في الأشياء التي تؤكل بالرطب.

وأخيراً، تبحث المقالة السابعة وعنوانها «في اللحوم وما يصنع منها» من ٩ أبواب. تبحث في قوى اللحمان بأنواعها، بما فيه الطيور والجراد، وباب في أبوال الإبل.

ويبلغ عدد الأحاديث التي وردت في كتاب أبي نعيم ٨٤٢ حديثاً، صنفها محقق الكتاب كما يلي:

أ) ٤٩٢ حديثاً صحيحاً أو حسناً.

ب) ٢٤٧ حديثاً ضعيفاً أو شديد الضعف.

ج) ٨٠ حديثاً موضوعاً.

د) ٢٣ حديثاً لم يستطع المحقق أن يجدها فيما اطلع عليه من مصادر.

وتشترك المقالات السبع في النقاط الأربع التالية:

١. وجود عدد وافر من الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

٢. وجود آثار عن الصحابة والتابعين، بجانب أحاديث مرفوعة.

٣. وجود أحاديث مذكورة في أكثر من باب.

٤. وجود أحاديث في أبواب لا تمت لها على الرغم من سعة معرفة المؤلف بالحديث وعلومه.

وهذا يسمح للقارئ أن يسمي هذا الكتاب بأنه موسوعة في الطب النبوي. ولا عجب أن هذا الكتاب أثر كثيراً فيما ألف بعده في هذا الموضوع.

الطب النبوي والطب البشري

مع أن بعض المؤلفين في الطب النبوي قديماً استفادوا من أدوات الطب البشري في الوصف للأعضاء والتشريح، والأدوية المفردة، فإن مؤلفات الطب البشري الشهيرة مثل «الحاوي» للرازي و«القانون» لابن سينا لا تهتم بالطب النبوي، ولا تدرجه طباً بديلاً أو مساعداً. والوصف التالي لمحتويات كتاب «القانون في الطب» لابن سينا يوضح ذلك.

قال المؤلف في توصيف الكتاب ومنهجية بنائه: رأيت أن أتكلم أولاً في الأمور العامة الكلية في كلا قسمي الطب، أعني القسم النظري والقسم العملي ثم بعد ذلك أتكلم في كليات أحكام قوى الأدوية المفردة، ثم في جزئياتها، ثم بعد ذلك في الأمراض

الواقعة بعضو عضو، فأبتدئ أولاً بتشريح ذلك العضو ومنفعته، وأما تشريح الأعضاء المفردة البسيطة فيكون قد سبق مني ذكره في الكتاب الأول الكلي وكذلك منافعها. ثم إذا فرغت من تشريح ذلك العضو ابتدأت في أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته، ثم دللت بالقول المطلق على كليات أمراضه وأسبابها وطرق الاستدلالات عليها وطرق معالجتها بالقول الكلي أيضاً، فإذا فرغت من هذه الأمور الكلية أقبلت على الأمراض الجزئية. ودللت أولاً في أكثرها أيضاً على الحكم الكلي في حده وأسبابه ودلائله، ثم تخلصت إلى الأحكام الجزئية ثم أعطيت القانون الكلي في المعالجة، ثم نزلت إلى المعالجات الجزئية بدواء بسيط أو مركب، وما كان سلف ذكره من الأدوية المفردة في الجداول والأصباغ التي أرى استعمالها فيه، كما تقف أيها المتعلم عليه إذا وصلت إليه، لم أكرر إلا قليلاً منه، وما كان من الأدوية المركبة أن من الأحرى به أن يكون في الاقراباذين (مجموع الأدوية المركبة) الذي أرى أن أعمله، أخرت ذكر منافعه وكيفية خلطه إليه، ورأيت أن أفرغ من هذا الكتاب إلى كتاب أيضاً في الأمور الجزئية، مختص بذكر الأمراض التي إذا وقعت لم تختص بعضو بعينه ونورد هنالك أيضاً الكلام في الزينة، وإن أسلك في هذا الكتاب أيضاً مسلكي في الكتاب الجزئي الذي قبله، فإذا تهيأ بتوفيق الله الفراغ من هذا الكتاب، جمعت بعده كتاب الاقراباذين، وهذا كتاب لا يسع من يدعي هذه الصناعة ويكتسب بها إلا أن يكون جله معلوماً محفوظاً عنده، فإنه مشتمل على أقل ما بد منه للطبيب، وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط وإن أخَّر الله في الأجل وساعد القدر انتصبت لذلك انتصاباً ثانيًا.

الطب النبوي في الكتابات المعاصرة

ذكرنا غزارة الإنتاج في الطب النبوي من قبل المعاصرين، وأكثرهم أطباء أو مختصون في العلوم الحيوية. وتتميز الكتابات المعاصرة بأنها تستفيد بقوة من العلوم المعاصرة والتقارير الإخبارية لإثبات ما تدعيه. وفي حالات كثيرة نجد أن المتن، وهو حديث أو بضعة أحاديث قد ألبس صفحات من التوضيح ومحاولات البرهان على ما جاء في هذه الأحاديث. وأجد أحياناً أن المثل الشهير «يصنع من الحبة قبة» ينطبق على هذه المحاولات والمؤلفات.

مؤلفات الطب النبوي بين القديم والحديث

لا شك في أن أي كتاب يؤلفه أحد من البشر محكوم بعدة أمور، من أهمها ثقافة المؤلف، وثقافة عصره أو بيئته. فمؤلفات الطب النبوي القديمة جاءت في اتجاهات متقاربة، وذات مميزات نذكر منها:

١. تبدأ عموماً بذكر أهمية الطب النبوي، وفضله، كونه نابعاً من الوحي الإلهي، مع الحض على التداوي.

٢. تلتزم بسرد الأحاديث الشريفة في الطب النبوي، مع اختلاف في تبيان صحتها.

٣. يجمعون ما بين طب الأبدان وطب النفوس والقلوب.

٤. تأثرت تآليفهم بالمستوى العلمي آنئذ في العلوم الطبية من تشريح وأدوية، وعناية. وفي مجال الأدوية كان التركيز على ما يسمى الأدوية المفردة، مقابل الأدوية المركبة التي كثر استعمالها في الطب البشري.

٥. الاهتمام بطب النفوس والقلوب ومعالجة أوجاعهما بطرق إيمانية من عمل الطاعات من صلوات وصيام وصدقات، وتطهير القلوب من درن الآثام، وحسن التوكل على الله، والإكثار من الذكر بدعوات مخصوصة. وقد ذكروا الرقية في علاج أمرض بدنية مثل لدغة العقرب والحية (في الحديث الشريف: لا رقية إلا في عين أو حُمَة)، وأخرى نفسية مثل حر المصيبة والحزن والكرب والهم والغم.

٦. لم يفرق المؤلفون فيما نسب من أقوال أو أفعال للرسول الكريم، إن كان هذا وحياً إلهياً، أو مما تعلمه الرسول من مجتمعه بطريقة أو بأخرى. ونذكر مثلاً لذلك، ننقله من كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» في الجزء الثالث (ص ٧٩).

(هديه في علاج الجرح) «في الصحيحين عن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد يسأل عما دووي به جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد. فقال جرح وجهه، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه. وكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسل الدم، وكان يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت قطعة حصير، فأحرقتها، حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح، فاستمسك الدم رماد الحصير المعمول من البردي، وله فعل قوي في حبس الدم؛ لأن فيه تجفيفاً قوياً، وقلة لذع. ...» (ص ٨١) واعتراضي، إذا كان هذا العمل طباً نبوياً، فمن الأكيد أنه ليس من الوحي بل معلومات المجتمع.

وأما الاستطراد والاستشهاد بعلوم ذلك العصر فنذكر عن ابن القيم أيضاً ما يذكره في الحجامة. فبعد أن يذكر حديثاً ضعيفاً

ويتبعه بحديث في الصحيحين، فإنه يتوسع في منافع الحجامة. ويخصص فقرات للحجامة بعناوين: منافع الحجامة ويستشهد بصاحب القانون (ابن سينا) إضافة لفوائد يذكرها، الحجامة على نقرة القفا فيذكر اختلاف الأطباء فيه، والحجامة تحت الذقن، وهديه في أوقات الحجامة، وفي اختيار أيام الأسبوع للحجامة، واستحباب التداوي واستحباب الحجامة.

أما المؤلفات الحديثة، فهي إما على هيئة كتب، كبيرة أو صغيرة، أو محاضرات تلقى في ندوات أو مؤتمرات. وإضافة لما ينطبق عليها من سمات المؤلفات القديمة، يمكن أن نسمها بما يلي:

١. الدخول في تفاصيل وفرعيات، أكثر من الأولين. وربما هذا ناتج من أن المشارك في مؤتمر أو ندوة، يريد أن يتحدث في أمر فرعي ويركز عليه، كما هو المطلوب في المؤتمرات والندوات. كما أن الاعتماد على العلم الحديث بجميع فروعه سمة قوية. وأحياناً، كما رأينا في فقرة «الفحص الطبي قبل الزواج» مبالغة غير حميدة، تخرج المداخلة عن خطها النبوي.

٢. كثرة نقل هؤلاء المؤلفين بعضهم عن بعض. والسبب، عندي، أن مثل هذه الموضوعات قد أشبعت كتابة وتفصيلاً. ومن أجل تسمين (بحث) نجد المؤلف ينقل ويعيد ويكثر من المراجع، وإن كان حقيقة لا يحتاج إليها كلها.

التسخير الحديث للطب النبوي

اخترت كلمة التسخير عن قصد في عنوان هذا الجزء. فالذين يتعاملون مع الطب النبوي منذ انتعاش استعماله من أكثر من قرن هم ثلاثة أصناف:

١. الأكاديميون، وهم قسمان. فالقسم الأول هم أطباء أو من أصحاب التخصصات العلمية ذات العلاقة. وعموماً، يكتبون ليؤكدوا المعجزة النبوية، التي ذكرت هذا أو ذاك قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، ويسوقون أدلة علمية مصاحبة حديثة. والقسم الثاني من أرباب العلوم الدينية الذين يجدون أيضاً في هذه الأحاديث من معجزات الرسول الكريم، ويتوسعون في عرض الآيات والأحاديث معتمدين على حجج الكتب القديمة والعلوم الحديثة.

٢. التجار. وهم الذين يستغلون الطب النبوي لأسباب مادية مالية بطريقة أو بأخرى. وهؤلاء طبقات أيضاً. فمنهم المشعوذون الذين يمارسون مهنتهم من منازلهم أو من مكاتب بسيطة. وهم يتفننون في جلب الناس، وعمل الدعاية المغرية بأساليب شتى. وتراهم ينجحون في حالة، ويخفقون في عشرات غيرها، فتجدهم وتجد البسطاء من الناس يركزون على الناجح وينسون الفاشل.

ونقاط الضعف عند البسطاء، وربما غيرهم هي: الجن والسحر والعين. فنحن نؤمن بالجن. وما ذكر في القرآن والحديث الشريف الصحيح عن الجن قليل. فهم من مخلوقات الله خلقهم من نار السموم (الحجر ٢٧)، وهم يرون البشر، والبشر لا يرونهم (الأعراف ٢٧)، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر (الجن)، ولهم خاصية الصعود في السماء كما هم، يلتقطون بعض الأخبار (أكثر من سورة: الصافات، الجن، ...). لكن الخيال الشعبي منحهم قدرات خارقة أخرى، ومزايا عجيبة. وهذا سهّل على المشعوذين الادعاء بأن عدداً من الأمراض النفسية التي تصيب بعض البشر إنما هي تلبّسات من الجن. ويكون العلاج بإخراج الجن من هذا المريض. ولهم في ذلك أساليب بعضها بالضرب الذي يفضي إلى الموت، وبعضها بهتك أعراض النساء.

أما السحر فهو من السبع الموبقات كما في الحديث الشهير. ويؤكد القرآن الكريم وجود السحر كما في قصة هاروت وماروت. (البقرة ١٠٢). ويظهر أن له تأثيرات نفسية وجسدية على من يصاب به. ولكن كيف يكون التشخيص بالسحر دقيقا؟ هذا سؤال ليس له جواب. وبما أن البسطاء، وأصحاب الحاجة وخاصة من النساء يريدون تفسيراً سهلاً (مقنعاً) لحالهم، فإن المشعوذ يؤكد لهم أنه قد عُمل لهم سحر. والعلاج بفك طلسم هذا السحر. وهنا يأتي دور الحجب والتمائم وأمثالها. وكثيراً ما لا يفيد هذا الحجاب أو العمل، ولا يعدم المشعوذ من تفسير، وتقديم عمل آخر. وتجد النساء المتزوجات اللاتي يخفن من الزواج الثاني لأزواجهن من زبائن هؤلاء المشعوذين. وربما البنات العوانس، والفاشلون في امتحان أو عمل.

وأما العين، فهي تفسير ثالث يردده المشعوذون وأمثالهم لتشخيص بعض الحالات الحسية أو النفسية. فالحسد موجود، ذكره القرآن الكريم والأحاديث، ونجده في حياتنا. وليس كل كلام حاسد يصيب المحسود أو يضره. وليست كل نظرة حسد هي عينا تفعل الأفاعيل. مع ما هو موجود في صحيح مسلم من قول الرسول الكريم عن ابن عباس: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين». ولا ننكر الحديث، ولكن نستنكر تسخيره من قبل المشعوذين لأغراضهم الدنيئة.

وهنا نذكر الرقية. وهي في الأصل قراءة من القرآن أو أدعية خاصة. ولو تتبعنا أحاديث الرقية الصحيحة، لوجدناها حالات بسيطة مخصوصة. ولكن المحدثين توسعوا في استعمالها.

إن آفة أي فكرة هو تحويلها إلى بقرة حلوب تدر أموالاً. ومع وجود القنوات التلفزيونية عابرة القارات، وكثرة الراغبين في الاستغلال المادي، تحول الطب النبوي إلى تجارة وسخافة. ولم يقف المشعوذون عند أي حد، فاستعانوا بالأحاديث الضعيفة وحتى الموضوعة. ولا يستطيع المشاهدون أن يميزوا الغث من السمين منها.

٣. من أسميهم «الإسلاميون المتحمسون» قليلو البضاعة في الفقه والتفسير والطب. وربما كانوا موجودين على مر العصور، لكن وسائل الاتصال الرقمية الحديثة منحتهم منصات لينشروا منها عجائبهم. فهؤلاء يقولون بضع آيات من القرآن الكريم، لا يعرفون تفسيرها العميق، وبضع أحاديث شريفة لا يعرفون درجة صحتها أو علاقتها بأحاديث أخرى، ثم يتحمسون لتقديم تفسيرات طبية من نتاج أفكارهم، يضيفون عليها ما يشاؤون من (دراسات) علمية غير موجودة أصلاً، أو أنها ليست دراسات علمية بالمعنى المعروف وينشرونها على صفحات التواصل الاجتماعي كالفيسبك أو الواتساب أو غيرها. وقد وصلتني رسالة مؤخراً من أحدهم يتحدث فيها عن فضائل وجبة فيها التين والزيتون، استناداً إلى قوله تعالى: «والتين والزيتون، وطور سينين...» (التين ١-٢). واخترع من عنده، أو نقل عن متحمس آخر، فقرات تؤكد (علمياً) فوائد هذه الوجبة. علماً بأن الآية لا تدل على أي شيء له علاقة بالعلاج!

المطلوب

١. بالنسبة إلى الأكاديميين، يكون المطلوب أولاً أن يتقوا الله فيما يكتبون ويقولون. وأن يبتعدوا عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأن ينبِّهوا العامة لهذه الأحاديث. ثم إن العمل المهم الآخر، أن يقرأوا هذه الأحاديث (الصحيحة) فيميزوا بينما هو وحي إلهي، وما وصل إلى الرسول من علوم عصره. وهذا أمر في غاية الأهمية. وكذلك بين ما هو خاص في حالات محددة وما هو عام في دلالته. وأن ينشر ذلك على أوسع مدى.

٢. بالنسبة إلى تجار الدين والمشعوذين، فالحل تربوي أولاً، في أن تعلم الناس دينهم، بعيداً عن الشعوذات والمبالغات بل والافتراء. ثم يكون الحل بالقوانين الصارمة التي تمنع وجود المشعوذين أصلاً، وتعاقب عقاباً رادعاً، وأن تلاحقهم في بيوتهم ومراكزهم بالقانون الرادع أيضاً. على أن السيطرة على القنوات الفضائية أصعب. فقد يكون تهديدها بإيقاف البث، إما من البلد الذي تبث منه، وإما بمنعها من حزم الترددات على الساتلات. وقد يكون قرار ملزم من منظمة التعاون الإسلامي في غاية الفائدة.

٣. الأفضل تركيز الطب النبوي على الجزء الوقائي أكثر من العلاجي. فهو متفوق حقاً في هذا المضمار، ويتوافق مع عقيدة المسلم وعباداته وسلوكه العام والخاص.

٤. نعود إلى المشعوذين، وادعاءاتهم الكاذبة أو المبالغ فيها. ومنها:

أ) الوعد بشفاء عاجل أو مدهش.

ب) سرد وقائع وشهادات تؤكد فعالية العلاج.

ج) عيادته ملأى بشهادات مختلفة وإجازات من مؤسسات غير معروفة أو غير معتمدة.

د) أساليب فحصه مغايرة لأساليب الأطباء.

هـ) دعواه أن المؤسسات الطبية المعتمدة الرسمية وغيرها تتآمر عليه وعلى أساليبه وأدويته.

و) ترويجه لدعاويه وأدويته في غير المجلات الطبية أو العلمية، بل بالصحف العادية أو المخصصة للإعلانات وأوراق الإعلان التي توزع شخصياً أو غير ذلك.

ز) أجوره مختلفة أو مبالغ فيها لا تتناسب مع الدواء.

ح) لا يوثّق أعماله ونتائجها.

٥. بالنسبة إلى التداوي بالأعشاب، ننقل من كتاب «الطب البديل» النقاط التالية:

أ) ضرورة مكافحة الغش التجاري للأعشاب. وعدم السماح بالأعشاب الدوائية إلا بناء على نتائج دراسات علمية، يقوم بها علماء مختصون. وتمنح الجهة المختصة (مثل مؤسسة الغذاء والدواء) الترخيص المناسب.

ب) عدم السماح بالترويج لأعشاب التداوي إلا لما حاز شهادة من المؤسسة المختصة. وتوضع عقوبات رادعة لمن يخالف.

ج) إدراج علم الأعشاب في الخطط الدراسية في الكليات العلمية ذات العلاقة.

د) تشجيع زراعة الأعشاب المجازة والعلمية من جميع النواحي.

هـ) تشجيع صناعة الأدوية من الأعشاب من قبل شركات الأدوية.

٦. بما أن المشعوذين و(دكاترة) هذا الطب معروفون جيداً، فعلى وزارة الصحة والمؤسسات ذات العلاقة أن تدهم عياداتهم سواء أكانت في بيوتهم أو في مكاتب وإحالتهم للقضاء.

٤. ربما من الواجب أن تتولى هيئة أكاديمية جامعية أو جمعية، نشر مجلة متخصصة في الطب النبوي، وتراعي المعايير العلمية فيما تنشر.

وأخيراً، أؤكد على قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» (التوبة ١١٩).

المراجع

القرآن الكريم.

الأحاديث الشريفة، من عدة مصادر.

- ابن قيم الجوزية شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب الزرعي، زاد المعاد في هدي خير العباد، المطبعة المصرية ومكتبتها، مصر. بدون تاريخ.
- الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الاصفهاني، الطب النبوي، دراسة وتحقيق د. مصطفى خضر دونمز التركي، نشر دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- عبد الحميد القضاة، تفوق الطب الوقائي في الإسلام، نشر المستشفى الإسلامي، عمان ١٩٨٧.
- عبد الحميد القضاة، الفحص الطبي قبل الزواج، ضرورة أم ترف، نشر جمعية العفاف، عمان ٢٠٠٣.
- محمد عبد الرزاق أسود، أثر السنة النبوية في الطب الوقائي والعلاجي المعاصر، بحث مقدم إلى مؤتمر السنة النبوية في الدراسات المعاصرة، جامعة اليرموك، نيسان ٢٠٠٧.
- موسى محمد المعطي، الطب البديل، الطبعة الثانية، مكتبة التوبة، الرياض ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.